قرآنيكا، مجلة عالمية لبحوث القرآن
المجلد 12، ع(2)، ديسمبر2020م، ص190-196

كتاب "بلاغة النور: جماليّات النص القرآني" لصاحبه "نفيد كرماني"، ترجمة: منصور، محمد أحمد، وحجاج، محمد محمود، ومعوض، أحمد عبدالنبي، ويوسف، محمد سالم، وحوج، كاميران، مراجعة: سعيد الغانمي. بغداد – بيروت، منشورات الجمل، ط1، 2008، عدد الصفحات: 565، الرقم الدولي:978389930607 (ISBN)(*)

خالد حسين طالب دلكي[1]، جمال محمّد مقابلة[2]

(Book Review: Kitab Balāghat al-Nūr: Jamlāliah al-Nas al-Qurāni)

Khaled Hussein Talib Dalky, Jamal Mohammed Muqabalat

العنوان بشقّيه يمثّل سؤالًا عن سرّ تأثير القرآن في الناس عامّة، وفي الصوفيين تحديدًا، لخصوصيّة تلقّيهم النصّ القرآني/ نصّ النور؛ وفحوى الجواب أنّ وراء هذا التأثير بنية جماليّة راسخة في النص القرآنيّ، ينبع مصدر رسوخها من مقدرتها على إذكاء الخبرة الجماليّة التي يعايشها المسلم والصوفي ويضفيها هو على النصّ القرآني (كرماني، 2008: 561)؛ فكيف ذلك؟

إجابة على هذا السؤال، ننظر في عنوان الكتاب بالألمانيّة: Gott ist schön, das ästhetische Erleben des Koran. وترجمته هي: الله جميل، التجربة الجماليّة للقرآن( ). وعليه، فالمؤلّف :

- يتحدّث عن تلقّي "الظاهِرَة القرآنيّة"؛ مستعينًا بمنهجيّة تحليل الخطاب، التي ترى القرآن إنجازًا/خِطابًا، وليس نصًّا/مُنْجَزًا حسب.
- لا يتكلّم عن "جماليّات" النصّ، بل عن "تجربة جماليّة" يعيشُها متلقّي الخطاب؛ ويعيها، بمقتضى إيمانه واعتقاده: "إنَّ ما يحتلّ مكان الصدارة هنا هو استقبال

(*)This article was submitted on: 07/09/2020 and accepted for publication on: 14/11/2020.

1 طالب دكتوراه/ جامعة الإمارات العربيّة المتّحدة
2 أستاذ الأدب والنقد، قسم اللغة العربيّة/ جامعة الإمارات العربيّة المتّحدة

القرآن من جمهور متلقّيه استقبالا جماليًّا"(كرماني، 2008: 7). والجدير بالذكر أنّ مفهوم كرماني للجمال أنّه بحث في الأثر الحسّي المسموع والمعاين لا الأثر الذهني الاستدلاليّ، بمعنى الإحساس بالجمال بفعل التذوُّق الخالص، البعيد عن دائِرَة "المفَكَّر فيه".

- ينطلق من مسلّمة: "الله جميل يحبّ الجْمال"، فيبحث في تجربةِ مُعايَشةِ هذا الجمال بتلقّي الخِطابِ المسموع، لا الكتاب المسطور، لدى المسلمين، وبالأخص المتصوّفة، "لقد كان ردُّ الفعل الصادر عن سامعي القرآن الصوفيين مثيرًا للدهشة والإثارة، وهو ردّ فعل فريد من نوعه" (كرماني، 2008: 492).

والظاهر أنّ المترجمين فهموا الجمالَ فهمًا نقديًّا، فاختاروا له "البلاغة". أمّا عند "كرماني"، - يتجاوز معطيات المدرسة النقديّة (الألمانيّة)، ولا ينفيها!- فهو جمال مزدوج (نقديّ/صوفيّ)، يختصّ بأثر جلاله وهيبته في النفوس، وهذا الأثر تترجمه الجوارح والأحاسيس. يقول "الكاشاني" (730هـ): "الجمال هو تجلّيه بوجهه لذاته ...، فلكل جمال جلال، ووراء كل جلال جمال، ولما كان في الجلال ونعوته معنى الاحتجاب والعزّة لزمه العلو والقهر من الحضرة الإلهيّة والخضوع والهيبة"، و"الهيبة" لدى ابن عربي؛ "أثر مشاهدة جلال الله في القلب، وقد يكون عن الجمال الذي هو جمال الجلال" (الكاشاني، 1992: 66). ويبدو أنَّ هذه التجربة لخصوصيّتها جعلتْ المستشرقين بمنأى عن فهم القرآن وتذوّقه كما يجب أن يكون.

نجّم "كرماني" كتابه على ستة فصول، تبدأ بـ"أوائل السامعين"، وتنتهي بـ"السماع عند المتصوّفة". أثبت المترجمون اسم "السميع" على الغلاف. فهل وفّقوا في اختيارهم هذا؟ أليس "الجميل" أنسب لأنّه، برأي "كرماني"، يمثّل درجة عالية من درجات الجمال، تتعلّق بالانطباع والأثر الدلاليّ لظاهرة ما. [و] يوضح الشعور بالجمال السبب لرد الفعل عند من يستمع للقرآن على سبيل الحقيقة؟ وهو ما توضحه حادثة يذكرها أبو عبيد؛ أنّ بدويًّا سمع رجلا يقرأ ﴿فَاصْدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾، فخرَّ من فوره ساجدًا وقال: "سجدتُ لفصاحته" (كرماني، 2008: 41-42). وعليه، فالمقابلَة بين كلمتي "الجميل" و"السميع"، ترجّح كفَّة "الجميل"، وترفض كلمة "السميع" التي تخصّ مصدر الخطاب/ الله

(عزّ وجلَّ)، فالكتاب معنيّ بالإنسان/السمّيع (بتشديد الميم)؛ أمّا الجميل فتؤدّي الأثر الذي ينشده "كرماني" من السماع.

وعليه فإنّ مسائل التلاوة والسماع والصوت واللحن والنغم والإيقاع استحقّت مساحة كبيرة من كتابه، وأخص بالذكر الفصلين (الأول والسادس)؛ بحث أوّلهما "تاريخ الاستماع والاستقبال" و"تذوّق اللغة" عند العرب في البدايات، واختصّ الآخر بِـ"تجربة السماع عند الصوفيين".

ينبِّه كرماني في الفصل الأول على أنّ لغة القرآن شاعِريَّة، وليس القرآن بشعر؛ فالشاعريَّة سمة من سمات اللغة، تقرّبها من الشعر دون أن تكونَهُ بالضرورة. ولأنّ العرب كانوا ذوي حساسيَّة مفرطة تجاه الشعر واللغة الشاعِريَّة، فـ"غير معقول إبلاغ رسالة الإسلام في كلام نثريّ" (كرماني، 2008: 123). وكذلك يؤَكِّد من خلال تجارب السامعين الأوائل أنَّ الأساس في التعامل مع "القرآن" هو بناؤه اللغوي الساحِر، فكثيرون منهم استمعوا للقرآن فدُهِشوا أو دخلوا الدين بسببه؛ "فليس الأساس هو معنى النص ولكن المعتبر هو بناؤه وشكله اللغوي الكلّيّ" (كرماني، 2008: 121). وفي هذا تأكيد واضِح على أنَّ القالب اللغويّ الذي تشكّل معنى القرآن فيه كانَ قالبًا رفيعًا، نُحِتَ بِلُغَة متحَتْ من خصائص الشعر الذي كان ذا سلطة عند العرب، دون أنْ تكونَ شِعْرًا، مما منحَ لغتَهُ علوًّا ورِفعةً تجاوزَتْ لغةَ الشعْر؛ وهذا هو ما يفسِّر قصص صدمة اللغة كما هو الحال مع الوليد بن المغيرة.

يبحث الفصل السادس، في جماليّة المعايشة الحقيقية للقرآن عند "الصوفيين" الذين لا يعنّون أنفسهم بالتفسير الاستدلالي وفهم الألفاظ، فهذا علم ظاهر لا يوصل إلى الغاية "بل إنّه يتحوّل إلى حجاب مانع للمعنى" (الفجاري، 2009: 164). فلا تعدو طرقهم في تحصيل "المعرفة"، أن تكون "معايشة ذاتيّة نوعيّة" وظيفتها "التهيئة والتحفيز"؛ لأنّ "الصوفيّ سامع القرآن يعايش ما يعايشه الأنبياء من كلام الله إليهم، ومن ثم فالخوف والفزع والهيبة تصيبهم أيضًا، ولا يختلفون عنهم إلا من حيث الدرجة" (كرماني، 2008: 517). فينجم عن هذا التلقي حالات تدعو إلى الدهشة والإثارة، وصولًا إلى "حوادِث قتلى القرآن"؛ وهي ردود أفعال لتلقي الخطاب لا مثيل لها في الأدبيّات الإسلاميّة ولا في

الأدبيّات العالميّة بعامّة، (كرماني، 2008: 492). فإذا ما امتلأ قلب الصوفي بالقرآن وأرهف له سمعه الواعي فإنَّه يسمعه لا من القارئِ الماديّ للقرآن بل من ربِّه وكأنه "متلقٍ أَوَّل" له، وهذا ما يفسِّر ردود الأفعال الغريبة التي تُشاهَد على أصحابِ الحضرة.

والمعتزلة كذلك لا يختلفون كثيرًا عن الصوفيّة في عمليّة التلقّي، فهم يؤمنون بأنَّ النصّ يطابق العقل، وأنَّ هذا الأخير متقدِّمٌ عليه، فالعقل موجود قبل المعقول (أي النصّ)، فإنّ "النصّ يكتسب معقوليّته بعد اندراجه في سياق عقليّ تفاعليّ" (سرحان، 2003: 26). فالصوفيّ، ومثله المعتزليّ، يتعامل مع الخطاب القرآني في ضوء تجارب سابقة يستدعيها، فإنْ كان المعتزلي يستدعي الدلالات المعرفيّة فإنّ الصوفيّ يستدعي الدلالات العرفانيّة، إلّا أنَّ ردود الأفعال التي تظهر هي واحِدَة في جوهرها، وإن كانت مختلفة في درجتها، بحسب السياق الذي يُسْتَدْعى وإطار التجربة المعيش. ما نريد أن نؤكِّد عليه هو أنَّ الصوفي، في عملية التلقي والفهم، إن كان في الظاهر ينفي العقل عن سلوكاته في التلقي فإنّه لا مفرَّ له منه إذ هو الوسيلة لبلوغ مراميه.

إنَّ اختلاف الدرجة في عملية التلقيّ سمح عند الصوفيين بوجود أدوات تهيئة غريبة عن سياق التلقي العادي، مثل الموسيقى؛ فعندهم "الموسيقى والغناء يعتبران صدى وانعكاسًا للصوت الإلهي القديم" (كرماني، 2008: 494)، لذلك كان "الصوت والسماع يلعبان دورًا أساسيًا في تشكيل وتحديد مجرى التلقّي"(كرماني، 2008: 493). هذا ما يفسِّر ــ بطبيعة الحال ــ الخصائص الموسيقية الساحرة والحضرات الغنائية الجاذبة التي تكون أثناء التهيئة، فلا أحد يستمع لها ولا يسكن إليها.

أما الفصل الثاني، فقد استغرقه "كرماني" في فحص الوسيلة التي من خلالها يتفاعل المتلقّي مع القرآن الكريم، ويفترض أنّها "شعريَّة أسلوبيَّة"، وهذه "الشعريَّة تظهر كإمكانيّة في القرآن" (كرماني، 2008: 138)، ويظهر "الاختلاف الأساسي بين القرآن والشعر ... فيما يتعلّق بمستوى المرْسِل والرسالة المرْسَلَة منه، وليس فيما يتعلَّق بمستوى المستَقْبِل وتلقّيه للرسالة" (كرماني، 2008: 542).

يؤَكّد "كرماني" أنَّ القرآن استطاع أن يكوّنَ صورَة نوعيَّة فارِقَة (ذات أسلوب خاص) بسبب طبيعة بنائِهِ اللغويّ الذي أُشْكِلَ على المتلقّين الأوائل: فهو شِعْرٌ وليس

بشعر! إنّهم تذوّقوا حلاوة بنائِهِ وجمال إيقاعه فانجذبوا له، وقاربوه بذائقة متمرّسة في الشعر، وإن لم تطابق جنس "الشعر" عندهم. فرأوا فيه "أسلوبًا مختلفًا"، فما هو بشعر ولا هو من أنواع الفنون "بل هو وسيلة لنقل رسالة الله ... وإذا ما كان البلاغ القرآني يأخذ أحيانًا شكلًا جماليًّا، إلّا أنّ ما يُعْنى به القرآن بالدرجة الأولى هو إبلاغ رسالة ليستْ جماليَّة بالضرورة، بل ينبغي النظر إليها على أنّها رسالة حقيقيّة، وهذا هو ما يجعل القرآن نصًّا دينيًّا" (كرماني، 2008: 220)، له قداسته وفرادته في الوعي الجمعيّ؛ بأسلوب ينماز به عن سائر عن الأساليب التبليغية الأخرى جميعها.

وأَمّا "النغم والصوت" في الفصل الثالث، فهما لدى المؤلّف من الموسيقى التي جعلت السامعين يتلقّون القرآن كما لو أنَّه "شعرٌ" بالمفهوم الوظيفيّ لا الاصطلاحيّ، يقول "كرماني": "أما في شعريَّة القرآن وخطَّة عمله التي يعبر عنها داخليًا وخارجيًا، فهناك ضرورة ملقاة على التلاوة، وموسيقية محددة للإلقاء ذات تركيبة واضحة" (كرماني، 2008: 236). فالموسيقى بقدر ما هي موجودة في الخطاب القرآني (من اللفظة إلى النظم) فإنّها كذلك موجودة في إمكانيّات الأداء/ التلاوة من جهة، و"الخبرة" السماعية من جهة أخرى. وهذه التجسيدات الثلاثة للموسيقى؛ النوتة الكلامية، والتلاوة، والسماع، تفتح البحث في "جماليّات تلقّي القرآن" من بدء التنزيل : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: 1)، فإنّه "في كل مرّة من مرات التلاوة يمكن للمرء استحضار موقف التواصل الأول بين جبريل ومحمد ويعايشه" (كرماني، 2008: 289).

ويُعَنْوِنُ "كرماني" الفصل الرابع بِـ"المعْجِزَة"، فالذي يميّز القرآن عن غيره من الكتب السماوية، كالإنجيل والتوراة، أن إعجازه يكمن فيه، في تركيبه وأسلوبه الذي يبعده عن الساحة البشريّة أو القدرات والإمكانيّات البشريّة (انظر: كرماني، 2008: 320).

أقامَ "كرماني" هذا الفصل على محاولات "الجاحظ (255هـ)" و"الباقلاني (402هـ)" في "إعجاز القرآن"، وبيَّنَ من خلال عرض المحاولتين أنَّ كُلًّا منهما استندَ في فكرة إعجاز القرآن على رصيد العرب السابق في "جمال الأسلوب اللغويّ" و"جمال تَذَوُّقه"؛ لذلك، فليس غريبًا أن يشترط "الجرجاني" على المشتغلين في "القرآن الكريم" أن يكونوا على علم كبير بالأدب والبلاغة والأسلوب. والبلاغة التي يشير إليها "كرماني" هي بلاغة

"الإبلاغ"، أي الاختيارات الأسلوبية التي تجعل منه شيئًا عجيبًا، وهذه العجائبية هي مناط الجمال النسبيّ الذي يعتمد على "المستمع" نفسه.

فمنذ مقولة "إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة" إلى مقولة "الله الله!" التي يرددها المستمعون لتلاوة جميلة للقرآن الكريم ونحن نتوارث هذه الذاكرة الحضارية الجمالية تجاه القرآن الكريم ككلام جميل له أثر في النفس، ويدفع إلى الإعجاب؛ والحقيقة أنَّ مسألة التلاوة يكون لها ــ والأمر كذلك ــ دورٌ كبيرٌ في تكوين ذاكرة جمعية للتلقّي من جهة، ودورٌ آخر في نقل الرسالة بجمالية عاليَّة.

يقول "كرماني": "ليس المحتوى فقط، وإنما دائما الأسلوب وحدَهُ هو الذي يؤدّي إلى معرفة الحقيقة بكل تأكيد. والحقيقة ليستْ استدلالية بحتة، وإنما جمالية" (كرماني، 2008: 445)، فكلما كان الأسلوب جميلا ومتفرِّدًا كان أثرُه في المتلقي أكبر، وكانتْ رغبته في الاستزادة منه أكثر، وكانَ التواصُل أبلغ. ولعل "كرماني" هُنا يشير إلى طاقة الحِجاج التي يتمتَّع بها القرآن، إذ إن القرآن الكريم ـــ وهذا من المسلّمات ـــ هو خِطاب مُقدَّس، يتغيّا التأثير في الناس وإقناعهم.

ويناقش الفصل الخامس "النَّبِيّ بين الشعراء" مصدر هذا الأسلوب، فيدعو المؤلّف إلى المقارنة بين القرآن والشعر، أو بين النبيّ والشاعر بجامع تصوّر المتلقّين الأوائل من العرب للإلهام كونه نظريّة في فهم الشعر، فحدّد النبيّ مصدر إلهامه بالوحي الإلهي حسب.

فإنَّ البيئة التي نزلَ فيها القرآن الكريم كانتْ خصبة لاستقبال حدث الإلهام، كما كانتْ خصبة لتذوُّق الكلام الجميل والتأثُّر فيه والانصياع له؛ ولكن في حالة القرآن فإنّ اختلاف مصدر الإلهام سيكون له الدورُ الكبير في تغيير الحضارة نفسِها، وهذه مشكلتهم معه. فالشاعِر يمكن أن يمدح أو يهجو أو يُباع ويُشْتَرى أو يشطب أو يغيّر أو ينقّح ...الخ، ولكنَّ النبي لا يستطيع أن يتدخَّل بشخصيَّته في كلام الله حتى على مستوى التفسير، وهو ما يعطيه نوعًا من الثبات والتجدد في الوقت نفسه. وعلى ذلك، فإنَّ أهمَّ فرق بين النبي والشاعر "أنّ النبي من حيث كونه إنسانًا يختلف عن الفنان الذي يُعْتَبَر عمله تعبيرًا رائِعًا عن هويته الشخصية، بينما يختفي النبي وراء الوحي"(كرماني، 2008: 446)؛ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ (النجم: 3-5).

أخيرًا، فإنّ الكتاب تتبّع كيفيّة تلقّي العرب ومن ثمّ المسلمين على مرّ العصور القرآنَ الكريم بوصفه (خطابًا بليغًا موقّعًا): فهو خطابٌ؛ تنزّل منجّمًا ومرتّلًا ليحاور الواقع، وما زال كلّ مسلم يتحرّى تلقّيه كأنّما عليه أنزل، فلا عبادة إلّا بتلاوته. وهو بليغٌ موقّعٌ؛ قرآن عربي نزل بلسان مبين، وكتاب معجز باعتقاد المتلقّين من المؤمنين به، من جهة معنى الوحي والتشريع، ومن جهة مبناه الذي أحلّه في ذروة اللسان العربي الذي به نزل، وقد هيمن على كلّ كلام فنّي لدى من أنزل عليهم، وما زال النموذج الأبلغ والأنقى والأعلى في الأداء اللغوي، حتّى قال كثيرون في العربيّة: شعرٌ ونثرٌ وقرآن. وعدّوا القرآن أرفع الثلاثة في بلاغة توقيعه، وهذا هو ما رصده "كرماني"، وكان حقّ ترجمة العنوان الفرعي أن تكون جماليّات الخطاب القرآني، لأنّ تتبّع كيفيات تلقّي المسلمين بأحوالها المتعدّدة كانت تعاين الخطاب القرآني في تلاوته وترتيله وتجويده وتوقيعه ومقدار التفاعل معه خطابًا مقروءًا أكثر منه نصًّا مكتوبًا، وإن كانت بلاغة إعجازه تحقّقت ـ بنظر الأتباع ـ في الخطاب القرآني وفي النصّ الكتابي على السواء.

المراجع والمصادر

REFERENCES:

Sārhan, Haitham. (2003). Istirātijiat al-Ta'wīl al-Dilālī 'inda al-Muktazilah. Syria (al-Laziqiyyah), Dār al-Hiwar, 1.

Al-Fajārī, Mukhtār. (2009). Al-Fikr al-'Arabī al-Islāmī: min Tawiliyyat al-Ma'nā ilā Tawiliyyat al-Fahm. Al Urduni (Irbid), 'Ālam al-Kutub al-Hadith, 1.

Al-Kathāni, 'Abd al-Razzāq. (1992). Mu'jam Isṭilāḥāt al-Suffiyyah, Taḥqīq: 'Abd 'Alāl Shāhīn. Al-Qāherah, Dār al-Mannār, 1.

Karmāni, Nufīd. (2008). Balāghat al-Nūr: Jamlāliah al-Nas al-Qurāni. Tarjamat: Mansur et.al. Murāja'at: Said al-Ghanmi. Baghdad, Beirūt: Manshurāt al-Jamal, 1.